اللغة العربيـة في القرون الوسطى
اللغـــة الفصحـــــى

قد درس النحاة العرب اللغة الفصحى دراسة متعمقة خلال القرن الثاني والثالث والرابع للهجرة . وتم ذلك بواسطة جمع معطياتها وتحليلها تحليلا منظماً : كالأحاديث والخطب والروايات التي ترتقي إلى مطالع الاسلام . بالاضافة إلى إختيارهم للقصائد الشعرية التي تمتد إلى 150 سنة قبل الاسلام . فعلى القارئ المعاصر أن يكون متحفظاً من هذه الأشعار لأنه ثبت بان بعضها هو في الحقيقة من إنتاج العصر الاسلامي . ومهما كان قدم هذه الأشعار . فالنحاة العرب لا يميزون بين لغة الشعر ولغة القرآن الكريم لأنهم يعتقدون أن هناك لغة واحدة هي اللغة الفصحى التي كان يفهمها عامة سكان الجزيرة العربية خلال فترة ظهور الاسلام . فهذه اللغة هي التي قام النحاة بوصف أحوالها الصرفية والتركيبية ومفرداتها . وإذا ما حدث شك أو خلاف بين العلماء في قضية من قضاياها . فإن مرجعهم في ذلك دائماً هو الراوي أي الناطق الفصيح من العرب البدو . وقد أدت هذه الدراسة العظيمة الدقيقة للغة إلى توحيد اللغة الفصحى . وحتى ولو لم ينتظم للناطقين فيما بعد التطبيق المستمر للقواعد التي استخرجوها فإن اللغة التي ثبتت على أيديهم ما تزال هي المعيار الذي يقتدى به كافة العالم العربي .

وعلى الرغم من دقة هذه القواعد اللغوية . فما لبثت اللغة العربية أن تطورت بسبب التغيرات التي حدثت . لاسيما بعد انتشار الفتوحات على أرض فسيحة تمتد من المحيط الأطلسي إلى الهند .

وكان للموالي دور هام في تطوير اللغة . وهم عتقاء من الأعجام الذين أسلموا واستعربوا واستوطن بعضهم عن المدن العربية الكبرى كالبصرة والكوفة والمدينة ومكة . ونبغ بعض هؤلاء الموالي نتيجة استعرابهم . فأصبحوا أدباء ونحاة مشهورين . ومن جهة اخرى .

نحن لانشاطر آراء الأستاذ كرانت هنري في الكثير مما يعرضه في هذا المقال وخاصة ما يقوله عن آراء علماء العربية ـ الذين عاصروا وشافهوا فصحاء العرب السليقيين ـ في وحدة اللغة الفصيحة وأشياء أخرى مماثلة ثم ان نظرته للغة تقتصر على الوجهة التاريخية والدراسة الزمانية وحدها ([redacted] diachronique) وهذا غير كاف . الادارة .

فإن اتصال العرب باللغات والثقافات الأجنبية كالفارسية والارامية ، أغنى لغتهم وأدخل فيها مفاهيم جديدة ، زيادة على ماحدث من تغيير للموضوعات الأدبية . فتحولت عن وصف الحياة البدوية ، التي وصفها الشعراء القدامى .

لم تتغير اللغة الفصحى خلال العصر الأموي بل بقيت قريبة من النموذج اللغوي الذي فرضه النحاة القدامى ، ماعدا لغة الحديث والفقه التي تأثرت بالألفاظ الجديدة التي استوجبها تطور الحياة الاجتماعية والاقتصادية . غير أنها تغيرت واختصرت ابتداء من العصر العباسي ، وذلك ما نجده على سبيل المثال عند ابن المقفع . كما أصبحت اللغة الفصحى صعبة الفهم عند العامة مما استوجب على العلماء شرح النصوص الأدبية وبالتالي اتساع الفرق بين اللغة الفصحى ولغة العامة . وكان لانهيار الامبراطورية العربية انعكاس سلبي على اللغة ، فكثر فيها اللحن والعبارات العامية . وكتب ابن قزمان في القرن السادس أزجالا متأثرة باللهجات العامية ، وألفت في نفس الوقت تقريبا قصص شعبية ظهرت فيها العبارات العامية مثل عنترة وسيرة بني هلال . وعلى الرغم مما اصاب لغة الشعب من تحول فإن الادب القديم لم يزل يشع إشعاعا حقيقيا إلا انه اصبح لا يخص إلا الخواص . فما مقامات الحريري الا من هذا النوع من الادب . أصبحت مصر بعد غزوات المغول في القرن السابع مركزاً للثقافة العربية ، غير أن الأدب فيها كان متأثراً باللهجات المحلية . وقد عجلت فتوحات العثمانيين بانحطاط اللغة والثقافة العربية وسيستمر إلى غاية النهضة التي حدثت في القرن الثالث عشر الهجري .

اللغة الشعبية (أو لغة العوام)

انتحديد وتنظيم قواعد اللغة الفصحى الذي ذكرناه فيما سبق ، قد دفع العلماء المسلمين إلى الاهتمام الكبير بلغة التحرير التي رتبت قواعدها بالاعتماد على النص القرآني والشعر القديم فقلت معرفتهم للغة التخاطب المستعملة في عصرهم ، ماعدا الجاحظ الذي جمع بعض المفردات غير الفصيحة في أواخر القرن الثاني ، ويبين هذا الذي جمعه تعقد الحالة اللغوية بعد الفتح بسبب اختلاط العرب بغيرهم من الشعوب .

إن المسلمين كانوا أكثر احتراماً للغة التحرير وهذا بخلاف المسيحيين واليهود الذين أدخلوا في لغتهم وأدبهم بعض العبارات العامية ، ولاشك أنهم لم يتفطنوا لهذه الظاهرة إذ كانت رغبتهم هي التعبير باللغة الفصحى الحقيقية . ولقد أدى هذا إلى ما أسماه الاستاذ « بلاو » بـ « فرط التصحيح » وهذا يعني أنهم استعملوا بعض الصيغ بصفة قياسية ولكن بدون أن يراعوا كيفية التطبيق للقاعدة النحوية وذلك لقلة جريانها في اللهجات ، (أي تعميمهم) ومثال ذلك طردهم المخطئ لصيغة المثنى المرفوعة ، نجد في مخطوطات المسيحيين مثل « بالكتابان » بدلا من « الكتابين » . ويمكن أن تفسر هذه الظاهرة بترك

الناطقين للألف وحصر إعراب المثنى في الياء فقط فأدى ذلك إلى أن يبالغ الكاتب منهم في التفصيح إلى درجة الخطأ فيترك الياء حتى في المواضع الموجبة لها . لاعتقادهم أنها استعمال عامي . ويسمى يسوعة « بلاو » هذه الحالة بـ Standard middle Arabic litterary ومن الصعب أن يميز فيها بين ما سببه فرط التصحيح وبين ما هو راجع إلى خصائص اللهجة . ولقد استفاد اللغويون في زماننا استفادة كبيرة من مخطوطات المسيحيين واليهود . لأن هذه الوثائق التي يرجع أقدمها إلى القرن الثاني . تطلعنا على التغييرات التي حدثت في اللغة في البلدان التي فتحها المسلمون وسنعرض لأهم خصائصها فيما يلي :

النظـــام الصـــوتي

يحدر بنا أن نلاحظ في البداية بأن استعادة النظام الصوتي الذي كانت عليه تلك العاميات أمر صعب للغاية بسبب عدم وجود علامات خطية للدلالة على أصوات الحركات وعلى هذا فالبحث في هذه الظواهر لا يمكن أن يعتمد إلا على الانحرافات الاملائية كزيادة الواو أو الياء من دون موجب نحوي مما يدلنا على أن هذين الحرفين نطق بهما بالفعل في هذه الأحوال . وسنطلق على هذه المرحلة من تطور اللغة العربية باللغة الوسطى . ونقصد بذلك اللغة المستعملة بعد عصر اللغة الكلاسيكية وقبل اللغة الحديثة وهي تمتد من القرن السادس للهجرة إلى القرن الثالث عشر .

1 ـ تتميز اللغة الوسطى بنبرة شديدة على الكلمة على عكس اللغة الكلاسيكية التي تعتمد على النبرة الضعيفة .

2 ـ إضمحلت المصوتات القصيرة في أواخر الكلمات . وأدى ذلك إلى زوال التقابل بين علامات الاعراب في الأسماء والأفعال . وسيكون لهذا التحول بلا شك انعكاس على البنية التركيبية ومعنى ذلك أن هذه البنية سوف تعتمد بعد ذلك على مكان الكلمة في الجملة عوض أن تعتمد على علامات الاعراب في أواخر الكلم .

3 ـ اختصرت المصوتات الطويلة في آخر الكلمة . كما حذف المصوت القصير في المقطع المفتوح مثل : Bana > Bna

4 ـ عمت ظاهرة الإمالة في المصوتات .

5 ـ تغير جرس المصوتات بحسب موقعها بين الصوامت : a. i. u > o. e. u

6 ـ تحول المصوت المزدوج إلى مصوت بسيط : aw > o. ay > i. e

7 ـ ترك التلفظ بالهمزة وذلك مثل : qara'a > qrà

8 ـ تكاثرت ظواهر التجانس بين الحروف .

النظـــام الـــصرفي والنحـــوي

قد ذكرنا تحول النظام الصوتي وبعض آثاره على النظام الصرفي والنحوي . وهذا التحول اتجاه عام وهو تطور اللغة من طور التركيب (état Synthétique) إلى طور التحليل (état Analytique) وسنوضح ذلك بالأمثلة الآتية :

1 ـ يتميز الفاعل عن المفعول في الجملة بوسيلة تحليلية . لا بموقع الكلمات فيها أصبح ثابتاً فيسبق الفاعل الفعل ويليه المفعول .

2 ـ تغيرت الإضافة بحيث أدخلت أداة خاصة بها بين المضاف والمضاف إليه . وذلك مثل : « الرقبة متاع الولد » عوضا عن « رقبة الولد » . أما الأدوات الأخرى فهي : بتاع . ا . ب . إلخ .

3 ـ يمكن أن نجد أيضاً في اللغة الوسطى حالات معينة تلتبس فيها هذه الحروف : أنْ . أنّ . إنّ وهذا علاقة بزوال الاعراب في الأفعال .

4 ـ استبدلت علامة الاعراب في الأفعال بعلامة تلحق الأفعال في صدورها وإذ لم يبق أي مجال للتمييز بين : « يَكْتُبْ » « ويَكْتُبْ » فإن التمييز بينهما صار على هذا النحو : « يكتب » « بيكْتُبْ » .

5 ـ أصبح الفعل يدل أكثر فأكثر على زمن الحدث بواسطة الأفعال الناسخة ككان وأخواتها وكاد وأخواتها .

6 ـ تناقص استعمال المثنى .

7 ـ عوضت صيغة إسم التفضيل : أفعل بصيغة تحليلية مثل كبير جدا بدلا من أكبر .

8 ـ تعرضت علامات الأسماء الاعرابية لبعض التغييرات مثل : ا ـ زوال علامة الرفع في المثنى والجمع المذكر السالم مثل « المسلمين » بدلا من : « المسلمان » و « المسلمون »
ب ـ استبدال الجمع المؤنث السالم بالجمع المذكر السالم في بعض الأحيان وقد انتشر هذا التغيير وعمّ اللهجات الحديثة .

9 ـ استبدلت صيغة المجهول في الاستعمال بصيغة مشتقة على وزن « تفعل » « وانفعل » وبيّن أن هذا التغيير ناتج عن تحول جرس المصوتات فتعذر بذلك الفرق بين صيغة المجهول وصيغة المعلوم .
وهذه صورة أخرى في استعمال الوسائل التحليلية في بناء الصيغ اللهجية أي تفضيل الصيغ التي تبنى بزيادة اللواحق في صدور الكلم على الصيغ التي يلحقها الاعراب .

10 ـ صار الاسم الموصول على صيغة واحدة وهي « الذي » .

11 ـ أما على مستوى الأسلوب . فإن تركيب الجملة الكلاسيكية قد أصيب بتغيير عميق جدا : فإن العربية الوسطى يتراءى فيها بصدق أسلوب التخاطب بهفواته وأخطائه . ويتضح ذلك في استعمال « كان » في أول الجملة . يبدو أن دورها الوحيد هو

إدخال عناصر الجملة التي لم تصع بعد في دهن الكاتب على بنية معينة. ويظهر عدم الاهتمام بالتوافق بين العناصر اللغوية داخل الجملة مما يقتضيه قياس العربية في كثرة استعمال الأفعال الجامدة والصيغ المبنية. وكثيرا ما يحدث حرف النسق بين الجمل وهذا مما يدل على عدم الاهتمام بالدقة في تركيبها. واخيرا نلاحظ أن إختصارا كبيرا لحق بأسماء الأعداد والمعدود.

الخاتمـــــــــــة

ان المخطوطات المشتملة على النصوص التي كتبها المسيحيون واليهود. تقيم الدليل القاطع على حصول تجدد في النمط اللغوي عند هذه الشعوب التي عاشت جنوب فلسطين منذ القرن الثاني ومن المعلوم أن لغة المخطوطات التي كتبها المسلمون في نفس الفترة تحولت هي أيضا وبصفة مماثلة عن اللغة الكلاسيكية. لهذا سمينا هذه المرحلة من تطور اللغة العربية بالعربية الوسطى وقد بيّنا أن العربية الوسطى تمتاز ببنيتها التحليلية على عكس العربية الكلاسيكية التي تتميز ببنية تركيبية (Synthétique) حصل هذا التغيير لأسباب داخلية كظهور نبرة شديدة على الكلمة ولأسباب خارجية في الوقت نفسه كوجود الميزة التحليلية في اللغة التي كانت تنطق بها الشعوب في البلدان المفتوحة. ومن الواضح أن هذا النمط اللغوي الجديد قد تطور في بيئة حضارية عند الطبقات الاجتماعية السفلى منذ بداية الفتح. أما اللهجة التي كان يتكلم بها الاعراب البدو فينبغي أن نضع نظرية الاستاذ يوهن فوك جانبا. لأنه يزعم أن لهجة بدوية مشتركة تكون قد انتشرت في المعسكرات خلال القرن الأول لأن هذا الرأي لا يأخذ بعين الاعتبار الحالة اللغوية المعقدة التي حدثت وامتزاج الشعوب الذي تلاه.

وما رواه الكتاب في القرون الأولى من الهجرة. مثل الجاحظ في القرن الثاني. لدليل على أن اللهجات كانت قد انقسمت بحسب المناطق المفتوحة. ففي غالب الاحيان أصبحت لهجة القبيلة النازلة بمنطقة هي لهجة تلك المنطقة. ويحتمل أيضا أن تكون اللهجة التي كان ينطق بها البدويون غداة الفتح تشبه لغة الكتّاب الكلاسيكيين فقد عرفنا أن هؤلاء الكتّاب كانوا يتخذون أولئك الأعراب الذين أخذت منهم اللغة مثلا يمتثلون بهم في الفصاحة والسلامة اللغوية. هذا ولم يهتم العلماء في ذلك الزمان الاهتمام الكبير بالعربية الوسطى وإن كانت بالنسبة للبحث في تطور اللغة العربية في استعمالاتها اليومية/وفهم أسراره ذات أهمية عظيمة.

وواضح أن ما تمتاز به اللهجات الحديثة هي قريب من خصائص العربية الوسطى. ولعل دراسة العلاقات القائمة بين هذه وتلك ستمكن العلماء في يوم من الأيام من تحرير تاريخ كامل للغة العربية.

د. جاك كرانت هنري. جامعة لوفين ببلجيكا